تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة عشرة ـ العدد ١٦٥ ـ كانون الثاني (يناير)/شباط (فبراير) ١٩٩٧ ـ شعبان/رمضان ١٤١٧هـ

عمر المختار يقارع الطليان في ليبيا

د. نقولا زيادة

(١)

كانت إيطالية، مثل بقية الدول الأوروبية، تتطلع، منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلى موضع موطىء قدمٍ في شمال إفريقية. وكانت تلقي بنظرتها نحوَ تونس، فلما احتلتْ فرنسة تونس (١٨٨١)، بدّلت الزاوية نحو ليبيا. وقد بلغ بها الأمر أنها أصبحت تعتبر ليبيا ملكاً لها، ولو أن هذه كانت بعد ولاية عثمانية. وفي السنوات الأولى من القرن الحالي فتحت إيطالية المدارس في طرابلس وبنغازي، وفروعاً لبنك دي رومه. وكانت القنصلية الإيطالية في طرابلس مركزاً للدعاية النشيطة.

وأخيراً سنة ١٩١١ هاجمت إيطالية ليبيا، وكانت حملاتُها شرسة، لكن الليبيين دافعوا عن بلادهم دفاعاً مجيداً. كانت المعارك في الدور الأول (١٩١١ ـ ١٩١٧) سجالاً. خسر فيها الإيطاليون الكثير من رجالهم، لكن العدّة والعدد عند الإيطاليين تغلبا في نهاية الأمر على الليبيين. وقامت الحرب العالمية الأولى وصارت ليبيا ميداناً من ميادينها الشرقية.

ولسنا هنا في معرض التحدث عن المعارك والحروب، لكننا نقول إنه في سنة ١٩١٧ تم اتفاق بين الليبيين والإيطاليين على أن تكون الأجزاء الساحلية تحت الحكم الإيطالي، أما الداخل فيديره السيد محمد إدريس السنوسي. وقد تمت تطورات داخلية كان في بعضها شيء من الخير القليل.

لكن في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٢ استولى الفاشيون بزعامة موسوليني على الحكم في إيطالية. وفي ٦ آذار/مارس ١٩٢٣، وبدون سابقِ إنذار، استولت إيطالية على الوحدات الليبية من الجيش، وأعلنت بلسان حاكم ليبيا الجديد «ان جميع الاتفاقات التي عقدتها الحكومة مع السنّوسيين هي باطلة «وملغاة»».

وكان ذلك إيذاناً ببدء الحرب من جديد. وكانت حرباً لا هوادة فيها. فبالنسبة للطليان كان القتال قتال موتٍ أو حياة، ولم يبخل الإيطاليون على العرب بالقسوة والشدّة والعنف والتشريد. أما من جانب الليبيين في برقة فقد كان القتال دفاعاً عن الأهل والوطن،

لذلك استشرى أولئك الأشاوس واندفعوا لا يبخلون على قومهم وبلدهم لا بالأرواح ولا بالأجسام. واتّحد المقاتلون اتحاداً قوياً.

وقد روى لي أحد الذين اشتركوا في المعارك تلك الأيام، وقد لقيته لما كنت أعمل في برقة (١٩٤٩)، وكنّا في طُوكَرَة (إلى الشرق من بنغازي) القصة التالية: «أترى إلى هذه البقعة من الأرض؟ لقد كانت في المنطقة التي اعتُبِرت طليانية. وكنا نحن فرقة صغيرة نقاتل في الجبل. وكان عليّ وجماعتي أن نجمع المال المعيّن على العرب النازلين في هذه الجهة لمصلحة الثورة. وكان الإيطاليون يتربّصون بنا وبغيرنا الفرص. فكنا مضطرين إلى مغافلتهم، حتى لا نُوقِعَ الأذى بالعرب الذين سننزل بينهم. وكنّا أحياناً نضطر إلى الانتظار أياماً. فكانت النساء يحملن إلينا الطعام وينقلن إلينا الأخبار. حتى إذا حان الوقت هبطنا فجمعنا، والقوم يدفعون مسرورين فرحين ويقدّمون ما يكونون قد حصلوا عليه من بنادق وذخيرة، فنحمل المال والسلاح ونعود إلى مراكزنا».

وكان العرب الذين يُضَمُّون قسراً إلى الجيش الإيطالي يعطون المقاتلين من زادهم وسلاحهم وذخيرتهم.

(٢)

كان عمر المختار هو القائد العام للثورة في برقة في هذه الفترة، إذ أن السيد محمد إدريس السنّوسي ترك البلاد إلى القاهرة. وكان يدير شؤون البلاد العامة من هناك. لكن عمر المختار كان كل شيءٍ في الداخل ـ إدارةً وميداناً. وكان الروح الملهمة للجهاد. وقد شهد له خصمه الاكبر غرازياني إذ قال: «وخصمنا الذي لا يُقْهر القائد الماهر والتابع الأمين [للسيد] إدريس السنّوسي، كان قلب الثورة البرقاوية النابض وروحها». ومن هنا كان اختيار السيد السنّوسي لعمر المختار لينوب عنه في الجهاد والإدارة اختياراً موفقاً. وما دمنا قد استشهدنا برأي غرازياني في عمر المختار، فلننقل هنا رأيه في المجاهدين. قال: «لم يكن ثمّةَ في الواقع خاضعٌ وثائرٌ [مجاهدٌ]، لأن جميع سكان برقة كانوا تحت نفوذ قائد الثورة. فكان الجميع وحدة شعبية سياسية مالية، تقف في صفٍ واحد، لتمكّن القوة المقاتلة من الصمود».

هذه انتفاضة؛ وانتفاضة الشعب الفلسطيني هي انتفاضة الجميع. الكل يكوِّنون وحدة شعبية ثائرة ـ منتفضة.

كان عمر المختار، الذي بلغ الستين من سنّه، مستمر التنقل والعمل. وهناك أمران حريّان بالذكر، الأول هو أنه نفخ في المجاهدين روحاً عالية؛ والثاني هو أنه لم يتساهل مع واحدٍ من المجاهدين في أمر من أمور النظام. فما اعتدى أحد من المجاهدين على أحد اعتداءً لا يسمح به الجهاد وروحه، إلا لقي على يد عمر المختار العقوبة التي يستحقها. وفي رأيي أنها ميزة كبرى لرجلٍ أن يكسب احترام جماعته وتقديرهم، في مثل هذه الظروف، مع أنه لم يكن في يومٍ من الأيام متساهلاً معهم.

وفي فترة ستّ سنوات فقط كان عرب برقة قد قتل منهم في المعارك ٤٣٣٠ رجلاً؛ أما الذين أُزْهِقَت أرواحُهم خارج ساحات القتال، في المعتقلات وما شابه ذلك، فقد كان عددهم كبيراً. فقد قدر أن سكان برقة، في سنوات القتال هذه أُزهِقَت أرواح ثلثهم على الأقل. فإن سكان الجبل الأخضر، وهو البقعة الخصبة المفيدة للزراعة في برقة أُجْلِيَ عنها سكانها إلى غرب برقة.

في أوائل تموز/يوليو ١٩٤٩ كنت في زيارة عملٍ لبلدة السّلّوق في غرب برقة. فبعد أن انتهيت من عملي الرسمي، وهو الكشفُ على بناء المدرسة تمهيداً لفتحها بعد عطلة الصيف، ذهبت لزيارة آل الكِزَّة في دارهم العامرة. وهناك أمام البيت جلسنا نحتسي كؤوس الشاي الليبي، ونتحدث عن أيام الإيطاليين. فقال كبير الأسرة: أمام هذا



البيت، الذي كان مقرّ المتصرّف الإيطالي وقف دييونو، وزير المستعمرات الإيطالية، وبادوليو حاكم ليبيا، وغرازياني وكان قد وصل برقة قبل أيام. كان بادوليو قد استدعى مشايخ القبائل في تلك الجهات، وأمرهم أن يصطفّوا، وأنذرهم بأنه لا يريد أن يسمع منهم كلمة. فكانوا واقفين هناك ينتظرون الزوّار. ولم يلبث أن نزل الثلاثة من سيارتهم حتى أعلن بادوليو أن الجنرال غرازياني قد عيّن حاكماً وقائداً عسكرياً لبرقة، وهو من سمع الناس أخباره في البلاد المجاورة. وعنده الصلاحية اللازمة للقضاء على كلٍّ من تحدّثه نفسه بمساعدة الثوار العصاة [المجاهدين]، ولو اقتضى الأمر أن يتخذ من منطقة السّلّوق مقبرةً لجميع العرب في برقة. وكلّ ما بدا من غرازياني أنه ابتسم كأنه يوافق على الإنذار، وخاصة الجزء الأخير منه.

(٣)

وصل غرازياني إلى برقة في ٢٧ آذار/مارس ١٩٣٠، وكان مصمّماً على وضع حدّ للثورة الوطنية في البلاد. وقد انتهج لذلك خُطَّة حققت له ما أراد، ودفع ثمن تحقيق آماله الشعب البرقاويُّ كاملاً. فقد اعتزم غرازياني، قبل كل شيء، أن يحول دون المجاهدين ووصول الإمدادات إليهم من بقية السكان ومن مصر. وفي سبيل ذلك أقام حاجزاً من الأسلاك الشائكة بين مصر وليبيا طوله نحو ثلاثمئة كيلومتر، يبدأ عند البحر في الشمال، وينتهي على مقربة من الجُغْبُوب. وأقام مركزاً للاعتقال. فقد أقصى نحو ثمانين ألفاً من البدو إلى برقة البيضاء وسِرتة، وهي من أشد أجزاء برقة قحولة. وأرسل معهم نحو ٦٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية. وكان ذلك في صيف ١٩٣٠. وانتشرت الأوبئة بين السكان، فزهقت أرواح الآلاف من الناس، وهلكت الماشية بسبب الحر وقلة الماء. وأنشأ المحكمة الخاصة (أو الطيّارة) التي كانت تنتقل حتى بالطائرة من مكان إلى آخر للمحاكمة السريعة.



□ عمر المختار.

وقد تكلم غرازياني عن أعماله في كتابه برقة الهادئة، أي بعد أن احتلّها. ولعلّه من المناسب هنا أن ننقل بعض ما كتبه هو وخاصة عن المجاهدين وتنظيماتهم وروحهم.

كتب غرازياني عن المسلّحين أي الثّوار بأنهم ينقسمون إلى ثلاثة أدوار أو تجمعات، وكلّ دورٍ يسمى باسم القبيلة التي تُمَوِّلُه وتمده بالرّجال والأسلحة. وتعتبر الأدوار هذه، وهي المعسكرات التي يتجمع فيها الجنود، مقراً للقيادات العسكرية والاجتماعية والسياسية. وكلّ دورٍ يقوم بنفسه من ناحية الجنود والأسلحة والمؤن. أما التحركات فهناك قيادةٌ عليا هي التي توجّه القتال في جميع المناطق. وكان أكثر جنود الثوّار من القبائل نفسِها، لأننا اكتشفنا في حوزة كلّ قتيلٍ أو أسير بطاقة شخصية معطاةً له من المتصرفيات الإيطالية المختلفة. وهذا دليل واضح على أن سكان المدن والقرى يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع كلّ الثوار (المجاهدين). ولم تكن الأدوار تستقر في مكان معينٍ معلوم بحيث يمكننا أن نوجّه قواتنا ضدّهم. فهمْ يملكون الإبل ويتوغّلون في الصحراء والجبال

والشعاب المجهولة، وهذه التحركات تساعدهم بأن يختفوا عن أنظارنا، ويصعب على قواتنا أن تسلك مسلكهم. وهناك في الغابات الكثيفة ينقلون المؤن والذخيرة والأطفال والنساء، وكذلك الدواب والأغنام والخيام يضعونها في مأمن بعيد عن الاعتداءات. وفي بعض الأوقات تتحمّل نساء الثوار (المجاهدين) مشقّة القيام مع ذويهن في النواجع (القرى) وفي المدن، تحت خطر الوشاية بهن، فيتسللن إلى المعسكرات ويَقُمْنَ بتضميد الجرحى من الجنود، وعند الاحتكاك بقوّاتنا كنّ يَقُمْنَ بمدّ المقاتلين بالمياه والذخيرة. وعندما يشتد القتال يَقُمْنَ بحشو البنادق بالذخيرة بحيث لا يُضيّع المقاتل وقته في حشو البنادق. وكُنّ يَنْقُلْنَ الجرحى إلى المخيمات للعلاج والتمريض، ثم قيادة قوافل الإبل لحمل المياه والمؤن للمقاتلين.

والمقاتلون في كلِّ دورٍ كانوا فرساناً وراجلين. ويشرف على الدور حاكمٌ للأحوال المدنية وقاضٍ شرعيّ ومموّلٌ للجنود وضبّاط. وكل الأدوار في الجبل (الجبل الأخضر) كانت تخضع لقائد واحد هو عمر المختار المعروف لدى الجميع بأنه النائب العام. وعلى العموم فهو قائد حركة الثوار. وحسب اعتقادي استطاع هذا الرجل بجرأته أن يفلت من الحصار الذي كنّا نحيطه به دائماً.

وقد عرفنا من سلك المخابرات أن عمر المختار يختبىء هو وجماعته من المجاهدين بين الأدغال الكثيفة، ولم يجرؤ أن يقابل قواتنا وجهاً لوجه. وحين يشعر بقوّاتنا تضغط بشدة، وتكاد أن تقبض عليه يلجأ للهرب والتوغل في الدواخل. ولكن رغم ضرباتنا القوية التي نوجّهها له ونقتل الكثيرين من أتباعه، فإنه كان دائماً قوياً ومستمراً في ثورته. وكان دائماً يسد الفراغ الذي نحدثه في صفوفه بعناصر شابة أخرى. زِد على ذلك تمكّنه من الحصول على البطاقات الشخصية لأتباعه من جميع متصرفيّاتنا. فعندما تقبض دورياتُنا على أيّ شخصٍ تشتبه به، تجده يحمل البطاقة الشخصية أي أنه خاضعٌ للحكومة الإيطالية. فتضطر إلى إطلاق سراحه. وهكذا في كل الأمور. فإن الثوار (المجاهدين) يتجولون في المدن والقرى، يشترون ما يلزمهم من الملابس والمأكولات والأسلحة (سرّاً)، ويحصلون على المعلومات عن تحرّكاتنا العسكرية. كل هذه الأعمال يقوم بها أتباع عمر المختار، وبمساعدة من سكان المدن والقرى الذين يخفون هؤلاء الثوار في بيوتهم ومخيّماتهم بحجة أنهم من أقربائهم الخاضعين لسلطاتنا، بينما هم في الواقع الثوار أعداؤنا.

وقد عرف أسلوب عمر المختار في الحصول على المَدد البشريّ. بعد كلِّ معركةٍ كان يحصر عدد القتلى من رجاله وإلى أيّ قبيلة ينتمون، ثم يرسل إلى القبيلة أن تعوّض عدد القتلى بعددٍ مساوٍ آخر بحيث لا يحصل النقصان. وفعلاً تُرسِلُ القبيلة العدد المطلوب مجهّزاً بكل شيء: ملابس وسلاح ومؤن. ويمكن القول إنّ كلّ مقاتلٍ هي قبيلته التي تدفع جميع تكاليفه.

ويقول غرازياني عن عمر المختار إنه أضفى على نفسه صورة الرجل الذي لا يُقْهَر وأنه أصبح أسطورة الزمن. ويضيف: وهذا يجب أن يعامل بنفس الطريقة التي اسْتُعْمِلَت في المنطقة الغربية من ليبيا - وهي قتله وجماعته بالتدريج وتضييق الخناق عليه في كلّ الميادين إلى أن يخضع لسلطتنا أو يُباد هو وجماعته بالجوع والعطش وبالحديد والنار.

(٤)

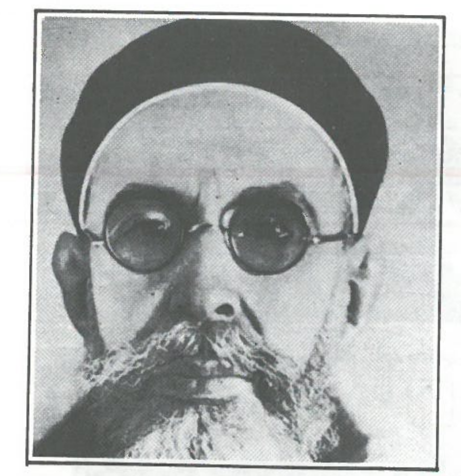
وكانت بين الجيش الإيطالي والمجاهدين معارك دامية وكان من أهمها الاستيلاء على الكُفْرَة في ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣١، ثم معركة ٢٧ شباط/فبراير ١٩٣١ التي خسر المجاهدون فيها كثيراً من الرجال. وأخذت الأدوار في الجبل تستعد لتجميع القوى

وتنظيمها؛ ولمناسبة عقد اجتماع في مكان يقع إلى الجنوب من الزاوية البَيضاء كان سيرأسه عمر المختار، أحاطت الفرق الإيطالية المتعددة التي وصلتها أخبار هذا الاجتماع بالمكان من كلّ جهة. وفيما كان عمر المختار يحاول التملّص من مطارديه ودخول الغابة، وقع عن فرسه، فأحاط به الإيطاليون وألقوا القبض عليه يوم ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٣١.. وقد علّق غرازياني على ذلك بقوله: «هذا الرجل أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر، واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام لأنه الرأس المفكّر والقلب النابض للثورة العربية في برقة، وكذلك المنظّم للقتال بصبرٍ ومهارة فريدة سنين طويلة - والآن وقع أسيراً في أيدينا».

وأضاف غرازياني: «كان عمر المختار من المجاهدين الكبار، لِمَا له من مكانةٍ مقدسة بين أتباعه ومحبيه. إن عمر المختار يختلف عن الآخرين [من الزعماء] فهو شيخٌ متديّن بدون شك، قاسٍ وشديد ومتعصّبٌ للدين، ورحيمٌ عند المقدرة. ذنبُه الوحيد أنه يكرهنا كثيراً، وفي بعض الأوقات يسلّط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة، مثل الجبليين. كان دائماً مضاداً لنا ولسياستِنا في كل الأحوال، لا يلين أبداً ولا يهادن إلاّ إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي. لم يخن أبداً مبادئه؛ فهو دائماً موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا».

بعد أن تأكدت السلطات من أن الرجل الذي أُلقي عليه القبض هو عمر المختار نُقِلَ إلى سوسه (أبولونيا) ومنها بحراً في طرّاد خاص، إلى بنغازي. وأُودِعَ السجن. وكل ما طلبه من صديقه الشارف الغرياني أن يزوّده بملابس نظيفة ليبدّل ملابسه الرّثّة والملطّخة بالدماء من أثر الجروح بجسمه.

وقد روى غرازياني عن عمر المختار قوله، وهو في الطرّاد من سوسة إلى بنغازي، إنّ وقوعه في الأسر لا يوقف الثورة والجهاد.

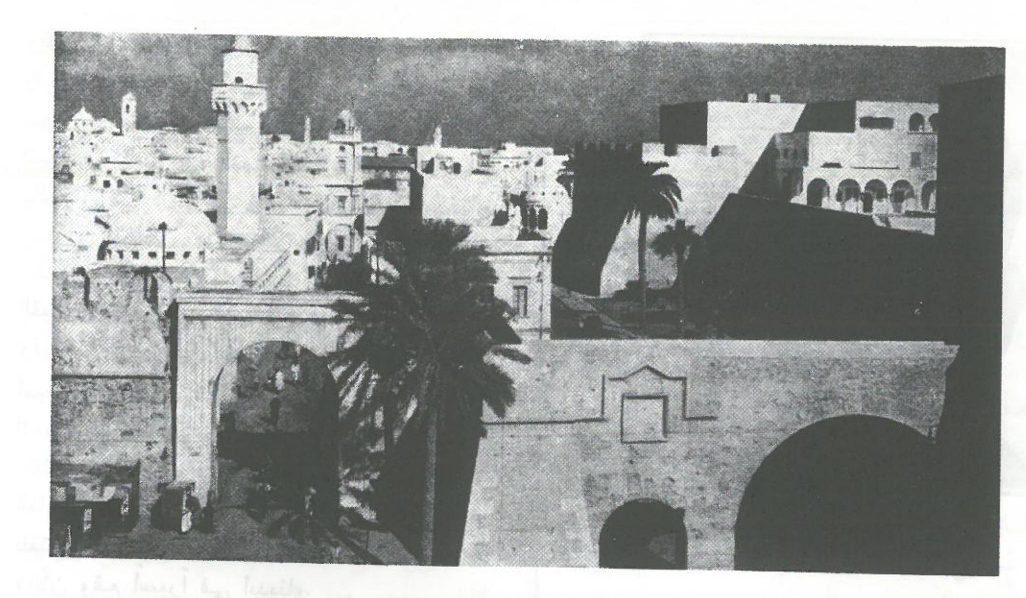


□ إدريس السنوسي.

كان غرازياني في إيطالية لما جاءه الخبر بوقوع عمر المختار في الأسر. فأسرع إلى بنغازي ووصلها مساء الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر (١٩٣١). وكان قد تقرّر أن يُحاكم عمر المختار أمام المحكمة الخاصة (الطيّارة) في اليوم التالي.

وقد جيء بعمر المختار، قبل المحاكمة إلى مكتب غرازياني. وقد دوّن هذا خلاصةً لما دار بين الزعيم عمر المختار وغرازياني. وها نحن أولاء ننقل جزءاً من هذا الحديث. قال غرازياني:

«وعندما حضر أمام مدخلِ مكتبي تهيّأ لي أني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم بالحروب الصحراوية. يداه مكبّلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أُصيبَ بها أثناء المعركة. وكان وجهُه مضغوطاً لأنه كان مغطياً رأسه بالجَرد (القباء)، ويجر نفسه بصعوبة لتعبه أثناء السفر بالبحر. وبالإجمال يُخَيَّل إليّ أن الذي يقف أمامي رجلٌ ليس



▫ مدينة طرابلس - ليبيا

كالرجال، له منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر. ها هو واقفٌ أمام مكتبي، نسألُه فيجيب بصوتٍ هادئٍ وواضحٍ (وكان ترجماني الخاص خالد الغرياني).

«س - لماذا حاربت بشدّةٍ متواصلة الحكومة الفاشستية؟

ج - من أجل وطني وديني.

س - هل كنت تأمل في يوم من الأيام أن تطردنا من برقة بإمكانياتك الضئيلة وعددك القليل؟

ج - لا، هذا كان مستحيلاً.

س - إذاً ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

ج - لا شيء إلا طردكم من بلادي لأنكم مغتصبون. أما الحرب فهو فرضٌ علينا، وما النصر إلا من عند الله.

س - لماذا تحارب؟

ج - كما قلت من أجل وطني وديني.

وبعد أسئلة كثيرة قال عمر المختار: كما ترى أنا طاعنٌ في السن، على الأقل اتركْني أجلس.

ويتابع الجنرال: «أشرت له فجلس على كرسيّ أمام مكتبي. وفي هذه الأثناء ظهر لي وجهُه بوضوح.. وقد تأمّلته جانبياً فرأيت في وجهه بعض الاحمرار. جالسٌ أمامي - هذا هو الرئيس المرهوب. وبدأت أفكّر كيف كان يقود المعارك ويحكم. وبينما كان يتكلّم كانت نظرتُه ثابتة إلى الأمام، وكان صوتُه نابعاً من أعماقه، ويخرج من بين شفتيه بكلماتٍ ثابتة وبكل هدوء. وقد قال عمر المختار، لمّا اقترح الجنرال أنه يمكنه أن يوقف الثورة ويطلبَ من الرجال أن يسلّموا أسلحتهم، «لا يمكنني أن أعمل أيّ شيء.. وبدون جدوى. نحن الثوار سبق أن اقسمنا أن نموت كلّنا، الواحد بعد الآخر، ولا نسلّم أو نلقي السلاح. وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت، وهذا على ما أظن حقيقيّ وثابتٌ عندكم».

«عندما وقف [عمر المختار] ليتهيّأ للانصراف، كان جبينُه وضّاءً كأنّ هالةً من نور تحيط به. فارتعش قلبي من جلالة الموقف.. وكانت شفتاي ترتعشان، ولم أستطع أن أنبسَ بحرفٍ واحدٍ».

(٥)

وانعقدت جلسة المحكمة في تمام الساعة السابعة عشرة من يوم ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٣١ في مقر مجلس النواب البرقاويّ أيام إمارة إدريس السنّوسيّ، وعمارة الحزب الشيوعي يومها.

وأُحْضر عمر المختار لكي يُحاكَم، وعند اكتمال هيئة المحكمة نودي على عمر المختار، وبعد سؤاله عن عمره وتاريخ مولده، قام المدّعي العام وبيّن أعمال عمر المختار واعتداءاته المتكرّرة على البلاد والسكّان الآمنين، وطالب الحكم عليه بأشدّ العقوبات وهي الإعدام.

وجلس. فوجّه القاضي الكلام إلى المحامي المنتدب للدفاع عن عمر المختار. وعندها تقدم المحامي، وهو ضابط إيطالي اسمه لونتانو، فقال:

«سيدي القاضي! إن هذا المتهم الذي انتدبتُ للدفاع عنه، وكنتُ متردّداً في أول الأمر، لكن ضميري حدّثني بأنها إنسانية منّي لا بد من قبول الدفاع. وها أنا أقف أمامكم لأقول لو أني التقيت بهذا الرجل في الشارع لما تردّدت لحظةً في سحب مسدسي هذا، وإطلاق النار عليه حتى أرديه قتيلاً لأنه عدوّي وعدوّ دولتي. غير أن الذي أريد أن أقوله إن هذا الرجل، عمر المختار، يدافع عن حقيقة كلّنا نعرفها، وهي الوطن. وكم ضحّيْنا نحن في سبيل الوطن وتحريره».

واعترض القاضي قائلاً: «أرى أن المحامي من غير رأي المحكمة»، واحتجّ المدّعي العام وفعلاً أُمِرَ المحامي بأن لا يخرج عن الموضوع ويتكلّم بإيجاز. وهنا تكلّم المحامي بحدّة وقال: «هنا محلّ للشرح الكافي إذا كنا رجال العدالة الحقيقية. أما إذا كنا غير ذلك، فيجب أن نترك الموضوع، واحكموا بمفردكم ولا لزومَ لهذه المحكمة وجلستها».



▫ موسوليني

«إن عمر المختار الذي هو أمامكم هو وليد هذه الأرض قبل وجودِكم فيها، ويعتبرُ كلَّ من احتلها عُنوةً عدواً له، ومن حقّه أن يقاومه بكلِّ ما يملك من قوة حتى يخرجه منها أو يهلك دونها. هذا حقّ أعطته إياه الطبيعة والإنسانية».

وهنا كثر الصياح من الحاضرين بإخراج المحامي. لكن المحامي أضاف قائلاً: «العدالة الحقّة لا تخضع لأي سلطة ولا لأية غوغاء، وإنما يجب أن تنبع من ضميرنا وإنسانيتنا». ومع كثرة الهرج استمر المحامي في دفاعه قائلاً: «إن هذا المتهم عمر المختار الذي انتدبتُ من سوءِ حظي أن أدافع عنه شيخٌ هرمٌ حَنَتْ كاهلَه السّنون. وماذا بقي له من العمر بعدما أتم السبعين سنة. إني أطلب من عدالة المحكمة أن تكون رحيمةً في تخفيف العقوبة عنه، لأنّه صاحب حقّ، ولا يضرّ العدالة إذا أنصفته بحكم أخفّ. وإنني أطلبُ أن تحذَرَ محكمتكم عدالة حكم التاريخ، لأنه لا يرحم. فهو عجلة تدور وتسجّل كل ما يحدث في هذا العالم المضطرب».

وكان آخر جزءٍ من دفاع المحامي، وقد ألقاه خلال الضجيج ضدّه من الخارج هو:

«سيدي القاضي، حضرات المستشارين ـ لقد حذّرت المحكمة من مغبّة حكم العالَم الإنساني والتاريخ، وليس لديّ ما أضيفه إلا طلب تخفيف الحكم على هذا الرجل صاحب الحقّ في الذودِ عن أرضه ودينه، وشكراً».

رفعت الجلسة للتداول، وبعد قليل عادت المحكمة ونطق رئيسُها بالحكم على عمر المختار شنقاً حتى الموت.

وقد نُقِلَ آلاف من الناس بالقوة غالباً إلى مدينة السلّوق إلى حيث سينفّذ حكم الإعدام. ويقول غرازياني في وصف تلك الساعة: «وفي يوم ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٣١ عند الساعة التاسعة صباحاً بعد أن صفَّ عدد كبير من السجناء السياسيين وأحاط بهم الجنود من كل جانب أُتِيَ بعمر المختار إلى الساحة ونُفِّذَ فيه حكم الإعدام. وتقدّر جملة الحاضرين لهذا التنفيذ بعددٍ كبير من مختلف الفئات يزيد عن عشرين ألف نسمة. وكان الموقف مؤثراً للغاية».

وقد زار كاتبُ هذا الحديث السّلّوق في شهر آب/أغسطس سنة ١٩٤٩. «ذهبتُ مع شابٍ من آل الكِزَّة إلى المكان الذي أُعدِمَ فيه عمر المختار. وهناك تذكرت من قصيدة أحمد شوقي قوله:

رَكَزُوا رفاتَك في الرِّمال لواءَ
يستنهضُ الوادي صباحَ مساءَ
يا ويحهم نَصَبُوا مناراً من دمٍ
توحي إلى جيلِ الغدِ البغضاءَ
جُرحٌ يصيح على المدى وضحيةٌ
تتلمَّسُ الحرّيَّةَ الحمراءَ

ظن الإيطاليون أن أسرَ عمر المختار وإعدامَه سيقضيان على الثورة والجهاد.

صحيحٌ أن العمل تعثّر قليلاً، لكن لما حان الوقت للعمل ثانية كانت النار تحت الرماد كافية لأن تتّقد. وكان قول عمر المختار هو الصواب. فقد روى غرازياني أنه قال لمرافقيه في الطّرّاد بين سوسة وبنغازي «إن وقوعه في الأسر لا يوقف الثورة والجهاد».

ذلك لأن الانتفاضة/الثورة هي أصلاً عملُ الليبيين (البرقاويين) رجالاً ونساءً؛ هم الذين ضحّوا وقاموا بالعمل وقدّموا الوقود باستمرار لنار الحرب المشتعلة سنوات. فالانتفاضة الحقّة مثل الثورة الصحيحة لا تقوم على أكتاف زعيم. إذ لا بد من المادة الأساسية التي تقوم بالانتفاضة وتسيّر الثورة.

الزعيم يصبح رمزاً وينفخ الحماسة.

لكن الرمز الأصليّ هو الوطن.

عمر المختار كان رمزاً، لكن كما قال هو عن نفسه إنه كان يدافع عن الوطن. الوطن هو المرتكز أرضاً، وهو الرمز الذي يملأ كلّ قلب.

الانتفاضة الفلسطينية أم الألف يوم (اعتباراً من ٣/٩/٩٠) رمزُها الوطن، ومرتكزُها الوطن، والثمن الذي يُدفع من دم الأبناء هو ثمن لهذا الوطن.

وفي نهاية المطاف فكل انتفاضةٍ ضد الظلم ـ مهما كان نوعه ـ هي انتفاضة الشعب سواء سار فرادى أم مثنى أم جمعاً. وهذا للغايات أجدى. •

***

● اقتحموا الموت، فرب جريء كتبت له السلامة، ورب جبان لقي حتفه في مكمنه، ان المجاهدين قد باعوا ارواحهم واشتروا الجنة.

«الامام علي»